الفلسفة الايكولوجية: نظرة جديدة في فلسفة العلوم الإنسانية وعلاقتها بالبيئة

Ecological Philosophy: A New look at philosophy of science humanity and its relationship to the environment

قلامين صباح: أستاذة محاضرة "أ"
كلية العلوم الاجتماعية
جامعة خميس مليانة

تاريخ إرسال المقال: 08/09/2018 **تاريخ قبول المقال:** 07/01/2019.

ملخص

تهدف هذه المقالة إلى الإسهام في تقريب القارئ من هذا الحقل الفلسفي المرتبط بعلاقة الإنسان بمحيطه البيئي.هذا الحقل (الايكولوجيا الفلسفية) الذي ينطوي على نموذج إرشادي معرفي جديد ويسعى لإيجاد أرضية مشتركة بين النماذج المعرفية البيئية والمواقف الأخلاقية المتعلقة بالطبيعة، ويشكل بداية الطريق في أفق الانخراط الفلسفي في قضايا البيئة والأنساق الطبيعية، وهو ما يشكل مطلبا حضاريا كبيرا.

الكلمات المفتاحية: الايكولوجيا، الفلسفة الايكولوجية، النماذج المعرفية البيئية، اخلاق الطبيعة، البيئة.

Abstract

The goal of this article is to contribute to make the reader closer to this field of philosophy, whose main idea is the relationship between man and his environment.

This field (Philosophical Ecology) involves a new model and seeks to find common elements between ecological knowledge models and ethical attitudes related to nature, and marks the beginning of the path of philosophical engagement in environmental issues and natural patterns ,and this is a great cultural requirement .

Key words: Philosophical Ecology, Ecology, ecological knowledge models, the ethics of Nature, The environment

المؤلف المرسل: قلامين صباح ، sabahguelamine@hotmail.com

مقدمة

لقد قطعت البشرية في رحلة حضارتها عدة مراحل شهدت فيها قدرة الإنسان قفزة نوعية في تغيير الطبيعة إلى غاية ظهور الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر، حيث بدأ معها الإنسان يعيش حياة عصرية حديثة .إلا أن هذه الحضارة تقوم أساسا على قهر الطبيعة واستهلاك مواردها فقد استثمر الناس البيئة كما لو أنها مورد لا ينضب ، مما أفرز سلسلة من الأزمات الإيكولوجية إذ صارت الضغوطات التي يؤثر بها النشاط البشري على البيئة بادية للعيان في كل مكان، فلم تعد الأرض قادرة على تحمل التطور الناتج عن هذه الحضارة الصناعية التي أسفرت عن العديد من المشاكل البيئية كاستنزاف الموارد الطبيعية وخسران التنوع الحيوي وتدهور المنظومات الإيكولوجية وانقراض الأنواع الحية وتناقص التنوع الحيوي والتلوث بأشكاله المختلفة، كتلوث الأنهار والبحار والهواء، والاجترار العالمي والثقب في طبقة الأوزون الذي يقي الكائنات الحية من الإشعاعات الكونية المميتة.. إلخ ،إذ أصبح الإنسان يعيش وسط أزمة وأصبح معه حماية الغطاء النباتي والحياة الحيوانية واحد من أهم تحديات زماننا الكبرى .وعليه فلقد بات الإنسان - خاصة مع تزايد عدد السكان وتفاقم نزعة التصنيع- في حاجة ماسة إلى إلقاء نظرة فاحصة ومعمَّقة على هذه المشاكل على مدى العقود الزمنية القادمة والى حضارة بشكل جديد، تبتعد عن الفهم التقليدي لعلاقتنا بالعالم الطبيعي الغير كاف للتعامل مع هذه المشاكل. الذي يرى الطبيعة كعالم يقع خارجنا ومنفصل عنا وموارده لانهائية.

ولّما كان رفض السلوك الأناني والطمع المادي أحد الموضوعات الثابتة في المذهب البيئي، فقد سعى هذا المذهب إلى تقديم فلسفة بديلة تقوم على الرضا الشخصي.كما بدأت الدراسات بالتحول إلى تيار عريض يضم مدارس متنوعة تتلاقح فيها الأفكار الفلسفية مع المفاهيم التي أدخلتها الإيكولوجيا،إنها الحضارة الإيكولوجية...الداعية بأشكال مختلفة إلى التوازن البيئي والحفاظ على مواردها والداعية إلى مركزية الطبيعة بدلا من مركزية الإنسان،والى احترام الطبيعة واحترام حقوق الحيوان والنبات والجمادات.

وعليه فان العداء الظاهر بين الإنسان والبيئة وما نجم عنه من مشكلات بيئية استوجب ظهور المذاهب الفلسفية البيئية وكذا تيارات عديدة في الفكر المعاصر تأخذ على عاتقها مهمة تحليل الجوانب الفلسفية للأزمة البيئية، والبحث عن مدى

حاجتنا – نحن البشر – إلى فهم جديد لعلاقتنا مع العالم الطبيعي في عصر التدهور البيئي الذي نعيشه.

فما هي انعكاسات انحراف الفعل الإنساني وآثاره السلبية على الحياة والطبيعة؟،وهل يستطيع الفكر الايكولوجي تفكيك وتقويض وإصلاح ما أفسده العقل الصناعي البرغماتي؟ وهل يمكن إيجاد أرضية مشتركة بين النماذج المعرفية البيئية والمواقف الأخلاقية المتعلقة بالطبيعة؟

1- مدخل للمشكلة الايكولوجية

إن الثورة التكنولوجية التي خاضها العالم المتقدم، أسفرت عن استنزاف مهول للموارد البيئية وبلغت ذروتها في النصف الثاني من القرن الماضي، وأدت إلى فقدان الأنظمة البيئية قدرتها على التجدد التلقائي وأخلت بالتوازن الطبيعي... فأصبحت معه النظم الأخرى الداعمة للحياة الاقتصادية والاجتماعية تفتقر إلى الاستقرار العالمي. وهذا ما أسمته بعض التيارات الايكولوجية بغطرسة الإنسان وتمركزه في الطبيعة؛ وغالبية هذه التيارات تحمل المسؤولية المباشرة للسلوك البشري فرديا كان أو جماعيا نحو الطبيعة للموروثات الثقافية والمعتقدات والقيم.

ولقد ظل الفلاسفة والمفكرون يوجهون عنايتهم إلى العالم بمختلف مكوناته، بحثا في مسألة خلقه وبدايته، والمادة التي صدر عنها.إلا أن التطورات المعرفية والعلمية في مجال العلوم الدقيقة، الفلكية والرياضية والفيزيائية، أحالت الإنسانية على توجه إنتروبولوجي غيّر مسعى المعرفة، حيث منح الأولوية للأنشطة العقلية البشرية والتجريبية، كمصادر لبناء العلم والحقيقة من جهة، وحور السؤال المتصل بالعالم والطبيعة من التوجه نحو البدايات والأصول، إلى الانشغال بكيفية صيرورة العالم وصيرورة الأحداث فيه، والقوانين الناظمة له من جهة أخرى.

فصار البحث في الطبيعة، منذ فلسفة الأنوار، تابعا لمنطق الإنسان في النظر والفهم، مما أفضى إلى ترسيخ نزعة إنسية مغالية في تمجيد الحياة البشرية والتمركز حول مقوماتها ومطالبها وانشغالاتها،ولو على حساب باقي الموجودات والكائنات.وهذا ما دفع إلى مراجعة مقومات الحداثة الغربية وأسئلتها الأنوارية وتصوراتها المعرفية،كما هو الحال في المقاربات الفلسفية الأميركية البيئية، التي أعادت طرح سؤال الأخلاق ومساءلة وضعية الإنسان في الوجود، وفق منظور ما بعد حداثي.

وتعتبر الحضارة الإيكولوجية تكوين ثقافي ومبادئ أخلاقية تهدف إلى تحقيق التناغم بين البشر وبين الإنسان والطبيعة وبين الإنسان والمجتمع،من أجل تحقيق تنمية

شاملة وازدهار متواصل لكل البشر. ومن الملاحظ أن مدارس فكرية صينية كثيرة تدعو إلى التناغم بين الإنسان والطبيعة، فدعوة الكونفوشية والطاوية هي "اندماج الإنسان في الطبيعة"، بينما تعتقد البوذية أن "كل الحيوانات متساوية ولها نفس حقوق الحياة". وفي عام 1988، التقى خمسة وسبعون من الحاصلين على جائزة نوبل في باريس واتفقوا على أنه إذا أراد البشر استمرار الحياة في القرن الحادي وعشرين، فلا مفر من الالتزام بالآراء الكونفوشية التي طرحت قبل 2500 سنة.ومن أجل خلق الحضارة الإيكولوجية، علينا أن نقوم بتغيير المفاهيم والقيم الأخلاقية.فالإنسان مطالب باحترام الأحياء الأخرى والطبيعة التي يعيش فيها ويعتمد عليها. كما ينبغي عليه أن يعدل نمط حياته بشكل يضمن تأمين الحاجات الأساسية والاستهلاك المعتدل والسعي إلى التمتع الروحي والثقافي.وهذا سيؤدي حتما إلى انبثاق أنموذج إرشادي جديد يكامل بين الميدان التقليدي لعلم البيئة وبين التكنولوجيا الحديثة، ويقوم بالربط بين البحث العلمي وإدارة المشكلات البيئية والتخطيط لها.

2-في معنى الايكـولوجيـا Ecology

مصطلح البيئة حسب معاجم اللغة العربية «مشتق من (بوأ). وهي المكان أو المحيط أو المنزل المستقر فيه، والذي يعيش فيه الكائن الحي »[1] فقد جاء في لسان العرب " بوأتك بيتا" أي اتخذت لك بيتا ، وتبوأت منزلا أي نزلته،والبيئة والباءة والمباءة : المنزل »[2] وحسب المعجم الفلسفي لجميل صليبا "هي المنزل والحالة ،وتطلق في الاصطلاح على مجموع الأشياء و الظواهر المحيطة بالفرد ، والمؤثرة فيه.وتطلق البيئة بهذا المعنى على الزمان والمكان من جهة ما هما إطاران محيطان بالظواهر الطبيعية» [3] .أما مفهوم البيئة حسب موسوعة لالاند فهي " محيط طبيعي، بيئة اجتماعية، وسط فكري" "بيئة داخلية"تقال على جسم عضوي، منظورا إليه من زاوية علاقته بالعناصر الخلوية التي يعيش فيها. بهذا المعنى، تقال كلمة وسط حتى على الزمان و المكان» [4]

وبعد أن تم الوقوف على مفهوم البيئة نحاول التعريج على علم البيئة والذي يتفق أغلب الباحثين والمتخصصين على أنه يحتل في الوقت الراهن حيزا هاما بين العلوم الأساسية والتطبيقية. ولعل من أهم ما دعا الإنسان المعاصر للنظر إلى العلوم البيئية بهذه الجدية هي التفاعلات المختلفة بين أنشطة التنمية والبيئة، والتي تجاوزت الحدود المحلية إلى الحدود الإقليمية والعالمية.فهو العلم الذي يدرس شروط وجود الكائن الحي وعلاقته ببيئته.ويهتم بحماية الطبيعة و البيئة»[5] وعلم البيئة له «عدة تقسيمات منها : الأوتو - ايكولوجي:علم البيئة الفردية و هو الدراسة المتعلقة بنوع واحد

وعلاقاته مع الوسط الذي يحي فيه، وهناك السيني ـ ايكولوجي: علم البيئة الجماعية وتعني دراسة الأنواع التي لها نفس خصائص المجموعة و علاقتها مع وسطها المتواجدة فيه، و هناك البيئة النباتية والحيوانية»[6]. والحديث عن علم البيئة بهذا المعنى يجعلنا لا نفرق بين معنى علم البيئة والايكولوجيا بل الأمر أن علم البيئة مرادف لعلم الايكولوجي،و هذا ما تتفق فيه المعاجم الفرنسية والانجليزية،وحتى في اللغة العربية فالأيكولوجيا أو علم البيئة (**Ecology**)«هو الدراسة التي تختص بعلاقة النبات والحيوان والإنسان وعلاقتهم ببعضهم البعض وعلاقتهم بالمحيط المتواجدين فيه»[7].علما بأن مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة البشرية في ستوكهولم عام 1972 أعطى للفظة "البيئة" فهما واسعا،إذ عرفها بأنها " كل شيء يحيط الإنسان"[8]،وفي تعريف آخر حسب نفس المؤتمر البيئة هي«كل ما تخبرنا به حاسة السمع والبصر والشم واللمس والذوق سواء كان هذا من صنع البشر او من صنع الطبيعة» [9] ، فأصبحت تدل على أكثر من مجرد عناصر طبيعية (ماء، وهواء، وتربة، ومعادن، ومصادر للطاقة، ونباتات، وحيوانات)، وإنما جعلها بمثابة رصيد من الموارد المادية والاجتماعية المتاحة في وقت ما وفي مكان ما لإشباع حاجات الإنسان وتطلعاته. [10]

أما علم البيئة باللاتينية Oecologia (إيكولوجيا) فهو احد العلوم الطبيعية وبالتحديد أحد فروع علم الأحياء الذي يدرس علاقة الكائنات الحية والتفاعلات بينها ،من نبات وحيوان وكائنات دقيقة مع بعضها البعض،ومع عوامل الطبيعة غير الحية كالماء، والهواء، والفضاء، والتربة، والمعادن، ومصادر الطّاقة، والمصطلح مشتق من الأصل الإغريقي"أويكوس:Oikos" أي ما يحيط بالشيء ويصبح مكانا لمعيشته، ولوجيا أي العلم أو الدراسة أو المنطق أو القانون.فهي دراسة التفاعلات بين الكائنات الحية ومحيطها "علم المسكن" أو "علم شروط الحياة".[11]وتعرّف الإيكولوجيا Ecology بأنها " العلم الذي يدرس العلاقات التبادلية بين الكائن الحي والبيئة المحيطة به»[12] ويعتر هذا العلم حديث النشأة، تلك النشأة التي أطلقها مؤلف مصطلح الإيكولوجيا العالم البيولوجي الألماني ارنست هيكل Ernest Haeckl (1834– 1919)،اذ يرجع هذا المصطلح الذي اشتقه هيكل من الكلمة الإغريقية Oikosإلى العام 1866 حيث استخدمه لأول مرة في كتابه تاريخ الخلق ونشره عام[13]1876، وتعني منزل الأسرة.وقد وضع هيكل هذا المصطلح بدافع من تأثره

المباشر بنظرية النشوء والتطور التي وضعها تشارلز داروين في كتابه أصل الأنواع1859 والذي يمكن اعتباره الأساس العلمي الأول عن الإيكولوجيا.[14]

وقد كان هذا المصطلح في البداية فرع من فروع البيولوجيا العضوية التي تهتم بدراسة العلاقات التي تربط أعضاء كوكب الأرض باعتباره منزلنا نحن البشر.وفي العام 1909 استعمل عالم البيولوجيا البلطيقي جاكوب فون يوكسكل Jakob Von Uexkull مصطلح البيئة ليدل على الشروط المادية المحيطة بالكائن الحي، ومن هنا اتخذت الإيكولوجيا تعريفها الوارد أعلاه[15]فأصبحت الإيكولوجيا العلم الذي يدرس العلاقات المتبادلة بين الكائن الحي وبيئته.وتتخذ هذه الدراسة موضوعا لها المنظومة الإيكولوجية الكوكبية (الأرض ككل) والمنظومات الإيكولوجية الجزئية التي تتكون منها.وتعرف "المنظومة الإيكولوجية" بأنها مجتمع من الكائنات الحية وبيئتها المادية يتفاعلان كوحدة إيكولوجية متكاملة غير قابلة للاختزال.إلا أن هذا التعريف كان محل انتقاد بعض العلماء، لأنه يؤدي إلى الخلط بين الإيكولوجيا والفروع العلمية الأخرى التي تدرس علاقة الكائن الحي والبيئة من مختلف الجوانب، كالبيولوجيا والعلوم الزراعية والطبية والهندسية.ولهذا السبب قدموا تعريفا دقيقا للإيكولوجيا من خلال تمييز موضوعها الخاص، المتمثل في المنظومة البيئية والتي هي "مجتمع من الكائنات الحية وبيئتها المحيطة بحيث يتفاعلان كوحدة متكاملة"[16]، فأصبح ينظر إلى الإيكولوجيا على أنها "العلم الذي يدرس المنظومات البيئية"[17].

وقد تم إضافة هذا الفرع الجديد مؤخرا إلى اهتمامات التفكير الفلسفي وأطلق عليه مصطلح فلسفة البيئة أو الفلسفة البيئية»» [18] وهذا ما يؤكد ارتباط الحكمة بالبيئة ويؤكد تلك العلاقة التواصلية بينهما، فالحكمة لابد لها من بيت يؤويها، ولابد لمحبها أن يفكر كيف يرعى هذا البيت و يعمل على حمايته، و يساهم في نشر التربية والوعي بضرورة حمايتها والرفق بها. يرتبط ظهور الفلسفة البيئية بظهور مجموعة من «المشكلات العالمية في الستينات والسبعينات من القرن العشرين.و حقيقة الأمر ليست المشكلات نفسها هي السبب، بل كان هناك وعيا عالميا حاول بشتى الطرق مواجهة تلك المشكلات. فكانت هناك مظاهرات طلابية في شتى أنحاء العالم، وحركات نسائية، و حركات عالمية، و حركات مناهضة للحروب، وحركات ضد العنصرية والعرقية وكذلك حركات وتوجهات راديكالية تثور على الأنماط التقليدية العقيمة للعلم والفلسفة. » [19]وتعرف الفيلسوفة كاترين لارير Catherine Larrère علم البيئة بأنه علم حديث؛ظهر خلال القرن[19] وتطور خلال القرن العشرين.علم

يتيح قدرا كبيرا من المعارف الضرورية لسياسة مهتمة بالمجال الحيوي وما يتعلق به من تنمية مستدامة وحماية للطبيعة وحفظ التنوع البيولوجي. كما يتيح لنا إدراك العلائق المعقدة التي تسود الطبيعة ضمن تصور نسقي أو شمولي.[20]

وعليه فان علم البيئة هو الدراسة العلمية لتوزع وتلاؤم الكائنات الحية مع بيئاتها المحيطة وكيف تتأثر هذه الكائنات بالعلاقات المتبادلة بين الأحياء كافة وبين بيئاتها المحيطة. [21] وهو اتجاه علمي يضم عدة ميادين،ويدرس قوانين العلاقة بين العضويات (النباتات والحيوانات والإنسان) بعضها ببعض، وبينها وبين البيئة[22]. كما ان كلمة إيكولوجيا تعني علم البيت أو المسكن الذي يسكنه الإنسان، وهو مفهوم يدل على العلم الذي يهتم بدراسة العلاقات القائمة بين مكونات البيئة من كائنات حية مختلفة - بما في ذلك الحيوان والنبات والإنسان - وبين مكونات البيئة غير الحية من تربة وماء وغازات جوية وأشعة كونية وغيرها،ومعرفة ودراسة القوانين والمبادئ المتحكمة في هذه العلاقات وتوازنها وتفاعلها وغير ذلك.

وتعد الكرة الأرضية النطاق البيئي الأشمل الذي يضم بداخله منظومات بيئية كبرى هي النطاق الجوي والنطاق المائي واليابسة، كما يشار إلى الحياة بأشكالها المتنوعة الكثيرة التي تتخلل هذه النطاقات بالنطاق الحيوي.وتحتوي هذه المنظومات في داخلها على منظومات أصغر كالغابات والصحارى والبحار.. إلخ،والتي تضم بدورها منظومات أصغر فأصغر.والخاصية الرئيسية التي تميز هذه المنظومات هي الترابط، فكل شيء، بطريقة أو بأخرى، مرتبط بكل شيء آخر، ومثل هذه العلاقات تتضمن وظائفية متشابكة واعتمادا متبادلا بين الأحياء، بعضها مع بعض، وبين البيئة[23]

وبالنسبة إلى ارنست هيكل فإن الإيكولوجيا علم يدرس العلاقات المتبادلة بين الكائنات الحية وبينها وبين المكان الذي توجد فيه،إنه فيزيولوجيا العلاقات المتبادلة بين عناصر الوسط الطبيعي،سواء أكانت علاقات الصداقة والانسجام أم علاقات التعارض والاختلاف وربما العداء بين هذه أو تلك من مفردات البيئة بشكل مباشر أو غير مباشر.فالايكولوجيا بالنسبة اليه هي تأسيس بيولوجيا جديدة أو اتجاها جديدا في علم البيولوجيا. ولقد تفرعت الإيكولوجيا كفرع علمي من البيولوجيا في أواخر القرن19في سياق التشعب المتزايد للتخصصات المعرفية الناجم عن الثورة العلمية واكتشافاتها العديدة.

تنظر الإيكولوجيا اذن إلى المشكلات البيئية على أنها نتاج خلل في العلاقات ضمن النطاق البيئي ومنظوماته نجم عن ازدياد الضغط البشري على البيئة حتى إنه

يمكن القول مع معظم العلماء إن الإنسان مشكلة البيئة[24]. وقد استندت الحركات البيئية إلى معطيات الإيكولوجيا ودعت إلى اتخاذ الإجراءات وإصدار القوانين التي تحد وتمنع ممارسة سلوكيات تلحق الضرر والأذى بالبيئة.

وكغيره من العلوم، فانه من الصعب فصل علم البيئة عن غيره من العلوم الطبيعية والبحتة، فهو مرتبط بكل فروع علم الأحياء ارتباطا وثيقا كالفسيولوجيا، وعلم الحيوان، وعلم النبات،والكيمياء الحيوية، والوراثة والتطور، وعلم السلوك، والبيولوجيا الجزيئية، والتقانات الحيوية.ويرتبط علم البيئة أيضا بالعديد من العلوم الأخرى،أهمها:علم الإحصاء، وذلك لتوزيع البيانات التي يحصل عليها الباحث البيئي توزيعاً إحصائيا، ويستخدم الحاسوب في تحليل النتائج وإعطاء أفضل الوسائل لعرضها وتوضيحها .وكذلك فهو يرتبط بعلم الكيمياء، والفيزياء، والجيولوجيا، والهندسة والزراعة بشتى فروعها .ومع تفاقم المشكلات البيئية وتحولها إلى أزمة عالمية شاملة بدأ المفكرون البحث في أسباب وجذور هذه الأزمة وباستنادهم إلى معطيات الإيكولوجيا شرعوا يدرسون العلاقة بين الإنسان والبيئة، موجهين نظرهم إلى القيم والأفكار التي تنبع منها الممارسات غير الحصيفة بيئيا، والتي جعلت الإنسان يسير في طريق يخرب فيه منزله الأرضي ومحتوياته.فقد نشأ علم البيئة إذا كحاجة موضوعية ليبحث في أحوال البيئة الطبيعية،أو مجموعات النباتات،أو الحيوانات التي تعيش فيها، وبين الكائنات الحية الموجودة في هذه البيئة .

ومع تطور علم البيئة وزيادة الاهتمام به ظهرت مصطلحات ومفاهيم جديدة وتم تعريف علم البيئة بأنه العلم الذي يبحث ويدرس قوانين وسنن الأعمال والنشاطات التي تقوم بها الكائنات الحية أثناء حياتها في الوسط الطبيعي الموجودة فيه،والتغيرات التي يحدثها الإنسان في هذا الوسط.وتم أحيانا تصنيف الإيكولوجيا إلى إيكولوجيا الإنسان، وإيكولوجيا الحيوان، وإيكولوجيا النبات، وإيكولوجيا الكائنات الدقيقة... [25]. وفي هذا الإطار،نشأت تيارات عديدة في الفكر الإيكولوجي كالإيكولوجيا العميقة والإيكولوجيا الاجتماعية والنسوية الإيكولوجية وعلم النفس الإيكولوجي والفلسفة الإيكولوجية.

3-الرؤية الفلسفية لعلاقة الإنسان بالطبيعة

ليس من الغريب أن يكون الاهتمام بالبيئة حاضرا في عالم الفلسفة فذلك نابع من طبيعة الفيلسوف كإنسان، لأن الفيلسوف إنسان يعيش واقعه، يشعر بوجوده،

يعي ويتأثر بما يجري من حوله.فقد كان هدف الفلاسفة هو«نقل مشكلات البيئة إلى الفلسفة، وجعلوا تلك المشكلات في قلب اهتماماتهم.وقد تسبب النقاش الفلسفي حول البيئة في انقلاب فلسفي كبير،وثورة كوبرنيكية من نوع جديد: لم يعد الإنسان هو المركز بل الطبيعة والحياة وبعبارة أخرى؛ تخلى الفلاسفة عن التمركز حول الإنسان؛ الذي هيمن على الفكر الغربي لفترة طويلة، وتجندوا للدفاع عن البيئة»[26].اذ يسعى العلماء والفلاسفة إلى تحقيق مشروع فكري متعلق بالأبعاد الوجودية للإنسان فوق الأرض من زاوية العلاقة مع الطبيعة بحثا عن فلسفة بيئية مفادها أن الإنسان كائن طبيعي صرف وينبغي أن يستوعب ويؤطر ضمن رؤية طبيعية محضة.فيقدم بول ريكور Paul Ricoeurمثلا من خلال حوار مع مجلة Ecologie politique [27]موقف مخالف لأطروحة جون ماري شيفر Jean-Marie Schaeffer[28]مفاده أن الإنسان جزء من الطبيعة ،وينبغي وضعه داخل النسق البيئي الكوني الذي تشكل في إطاره، إلا أن الإنسان يعتبر الشق الوحيد في المنظومة الكونية المتميز بالمعرفة والمسئولية.لذلك يدعو بول ريكور إلى الموازنة بين الإحساس بالانتماء إلى الطبيعة وبين الإحساس بالاستثناء داخلها.كما يذكرنا بما قام به هيدغر في هذا السياق الذي نظر لفكرة الإفراط في"الاستثناء الإنساني" كما لو كان الإنسان متميزا كلية عن الطبيعة فينتج عنه ظهور الإنسان على مسرح الكون كمركز لـ"كرنفال" من تنظيمه هو،وتدبيره لورش من الأشياء الجامدة [29]وعليه فان الحفاظ على الطبيعة يتأطر فلسفيا ضمن مشروع إنساني.ومقتضى ذلك حسب بول ريكور هو ضرورة القيام بنقد العقل الأداتي انطلاقا من الأخلاق التواصلية المنبثقة فلسفيا عن "أخلاقية الانتماء"

كما يعتبر هيدغر أول المبشرين بالمشكلات الناتجة عن التعامل السلبي مع الطبيعة[30]،حيث خصص أجزاء كثيرة من مؤلفاته لمعالجتها منها كتابيه التقنية والحقيقة والوجود،والفلسفة في مواجهة العلم والتقنية.ويحاول من خلالهما أن يلقي الضوء على طريقة القهر والإجبار التي يتعامل بها العلم الغربي مع الطبيعة وكأنها مستودع مطروح للاستهلاك فيقول:"إن الفيزياء تجبر الطبيعة على أن تظهر نفسها كمركب قوى قابل للحساب والتنبؤ وهو ما يجعل التجريب مسخرا لمسائلتها واستنطاقها"[31]

ولقد نبه هيدغر الإنسان المعاصر إلى خطورة أنشطته الصناعية معتبرا أن الإنسان بصدد تدمير وطنه،مادام أن العقل الصناعي التقني يتعامل مع الطبيعة كموضوعات قابلة للاستغلال.فهذا الأمر يعتبر عاقبة مشؤومة "فالعلم الغربي نما في بلاد الغرب وفي حقبة تاريخية،قوة لا نلقاها في أي مكان على الأرض،انه أخيرا ينشر

سلطانه على الأرض برمتها"[32]. فالطبيعة ليست مجرد عالم يتموقع خارج وعي الذات وخارج جغرافية الجسد، بل إن الطبيعة هي جسد الإنسان الحقيقي وما جسده إلا امتداد فيزيائي لجسد الطبيعة ،وعليه فان فلسفة هيدجر ليست واعية بانتهاك الطبيعة فقط بل رائدة في التنبيه إلى خطر التقنية على الطبيعة ،كما انشغل هيدغر بـ"معرفة أين يفرض الفصل المثالي بين الذاتية الإنسانية والطبيعة وأين وكيف يتم تجاوزه.ولكي نجتاز عصر أزمتنا البيئية الحالية، ينبغي أن نهجر التصورات المفتقرة عن الطبيعة التي أورثنا إياها التراث الغربي، وننتقل إلى صياغة أغنى،فالاجتياح الحديث للطبيعة كما يرى هيدغر هو نتيجة لسيطرة الفهم "التكنولوجي" الحديث للعالَم الذي، يرى فيه ذروة "التراث الميتافيزيقي" الغربي[33] ولا يخفى ما لهذا البعد في التفكير من "أداتيه شاملة " بتعبير يورغن هابرماس، حيث انتقدت مدرسة فرانكفورت خصوصا مع هوركهايمر وادورنو التعامل مع العقل كأداة كما يدعو هابرماس إلى تبني "الأخلاقية التواصلية" [34]

ولقد استشعرت الفلسفة المعاصرة هذا الخطر واستحوذ عليها القلق الانطولوجي بتعبير هيدغر،وهي تشعر أن الطبيعة- الوطن ترحل عنا كما لو كانت مسافرا عزيزا على القلب يركب قطارا ويودع أحبابه .وأمام هذا القلق الأنطولوجي من دمار وطن الإنسان حاول الفكر الفلسفي أن يحاور العقل الاقتصادي الصناعي لعله يقنعه بضرورة الحفاظ على البيئة الطبيعية ، ومن ثم ظهر الفكر الايكولوجي ليحاول إعادة الحياة للوطن وليحاول الانتصار على العقل الإنساني البراغماتي الذي فقد عقله لحظة استغلاله للطبيعة[35]، فأصبح العقل أحمق بتعبير مشيل فوكو.

ومن بين مهام الفكر الايكولوجي إقناع العقل الصناعي بضرورة التخلي عن وهم المنفعة الإنسانية الأحادية ،فأي منفعة لا يستفيد منها الإنسان والطبيعة في نفس الوقت ليست بمنفعة بل هي مفسدة عظيمة. لطالما آمن البراغماتيون أن الحقيقي هو المفيد ونفس الفكرة صرح بها وليام جيمس. فالمنفعة الوحيدة الممكنة هي منفعة الإنسان لأنه أسمى كائن فهو يتميز بالعقل والروح والوعي ومن تم يجوز له البحث عن منفعته حتى في الحالات التي تتعارض منفعته مع منفعة البيئة .وكثيرة هي النظريات الفلسفية التي آمنت بهذه الفكرة. فلطالما اعتبر الفلاسفة ورجال الدين أن الطبيعة قد خلقت من أجل الإنسان ،وبالتالي فهي ليس لها غاية في ذاتها ، فالأشياء الطبيعة ليست موجودات من أجل ذاتها بل هي موجودات من أجل الإنسان .تقول سيمون دي بوفوار في فقرة جميلة من روايتها الأولى " الضيفة " : "إن حضورنا للعالم هو الذي يوقظه

من نومه "[36] حسب النظرية الوجودية، فالطبيعة لا تعي ذاتها إلا عندما يستعملها الإنسان، وعندما تكون بين اليد بلغة هيدغر. وانطلاقا من فكرة التسخير انطلقت الذات الواعية تستهلك الأشياء وتستعملها كوسيلة لتحقيق غاياتها دون أن تضع لهذا الاستهلاك حدودا او قيودا ودون أن تكون لديها القدرة على الإنصات لألم الطبيعة.

وقد بيّن امانويل كانط انه لا وجود لأي حرج أخلاقي من استعمال الإنسان للأشياء كوسيلة لأنها أشياء محرومة من العقل[37]ولكن هذه الفكرة انتقدت من طرف بعض الفلاسفة أمثال هانس جوناس الذي يعتقد أن "الأمر الكانطي" مقتصر على دائرة عمل محدودة في الزمان والمكان، ولا ينتظر منه إلا تداعياته على المدى القريب متجاهلا تجليات الفعل البشري على الأنساق الطبيعية، لذلك يحتاج المفهوم الكانطي إلى إعادة صياغة وإعادة تحيين. فإذا انطلقنا من أن الهدف الرئيسي للإنسانية هو الاستمرار، فإن فعلا ما لا يمكن أن يكون عقلانيا إلا إذا أخذ بعين الاعتبار تداعياته على المدى البعيد، وخصوصا فيما يتعلق بتأثيرات الفعل الإنساني على المجال الطبيعي.[38]ويمكن القول أن هانس جوناس اتجه إلى دراسة قضايا البيئة والتكنولوجيا بسبب دور التكنولوجيا وقدرتها على تدمير الحضارة،فهو يدافع عن إنسانية واضحة المعالم انطلاقا من أن الإنسان يقوم بحماية الطبيعة لصالح نفسه؛ولأن تدمير الغلاف الجوي مثلا معناه تدمير الإنسان ...فالطبيعة غاية في ذاتها وليست مجرد وسيلة وهذا يوضح أن الأخلاق الكانطية هي أخلاق منغلقة بلغة هنري برغسون [39]،منغلقة على الإنسان وغير منفتحة على الطبيعة .ويمكننا القول أن الأخلاق الغربية لم تكن أخلاقا منفتحة على الفكر الايكولوجي والأخلاق البيئية.وحدها الفلسفة اليونانية من جسدت الإيمان الحقيقي بالطبيعة،حيث استهدفت الفهم وكشف حقيقة الوجود الكامنة في روح الطبيعة والنظر إليها نظرة كلية انطلاقا من منهج الحدس الفلسفي، ورفضوا استعمال التجربة لأنها تشوه الطبيعة. واستطاع هذا التوجه الفلسفي إدراك عنصر الحياة الكامن في الطبيعة، وامتزجت روح الإنسان بروح الطبيعة بتعبير هيكل.

وبهذا فقد شكلت هذه المرحلة تأسيسا مثاليا لعلاقة مثالية ونموذجية بين الإنسان ووطنه، وأشار جان جاك روسو لهذه العلاقة النموذجية عندما نظر إلى حالة الطبيعة باعتبارها حالة جسدت تناغم الإنسان والطبيعة، إذ أن نداء الطبيعة عند روسو هو بمثابة صوت من القلب ونجوى تمتلك قيمة البيان، إذ يصرح في كتابه الكبير ايميل:"إذا كانت الطبيعة لا تمنحني إلا التناغم والتناسب فالنوع البشري لا يمنحني إلا

الخلط والفوضى"[40].فكان يشعر أن الحضارة ستصبح عدو للإنسان تفسده وتبعده عن التكوين الأصلي، لهذا فإن الحداثة عند روسو متعارضة والطبيعي تم قنصه واصطياده ولإنقاذ ما تبقى يجب العودة إلى العصر الذهبي.وقد منحت الطبيعة للإنسان بركتها وأخلاقها الفطرية فانعكس ذلك على الإنسان الذي أصبح كائنا مسالما وطيبا ولم يعرف معنى الشر لأن الطبيعة مسالمة بطبعها لا تصل إلى إنتاج الشر [41] في هذه المرحلة كان الإنسان يعتبر الطبيعة كائنا حيا،ومع انتصار العقل الصناعي وبدوران عجلة التقنية، بدأ الإنسان ينظر إلى الطبيعة كشيء قابل للاستغلال ،حيث بدأ العقل الصناعي يتسيد الطبيعة الطيبة عندما أخضع الأشياء للتجربة فاكتشف أنها ليست إلا مواد فاقدة للروح ومن ثم برر استغلالها وأعلن نفسه سيدا عليها .

إن ما يبرر استغلال الطبيعة هو النظر إليها كمجرد موضوع غير عاقل من طرف فلاسفة يؤمنون بثنائية كلاسيكية هي ثنائية الذات والموضوع، فالفكر الايكولوجي يدعو لاعتبار الطبيعة ذاتا لا تختلف عن الذات الإنسانية والى انجاز ثورة جديدة إيكولوجية تزيح الإنسان من المركز،وتنقله إلى عالم لا مركزي يتعايش فيه الإنسان والطبيعة.فما نشهده من إخفاق في تعاملنا مع البيئة الطبيعية يعود إلى فشلنا على الصعيد العقلي في موضعة ذواتنا ككائنات إيكولوجية فقد أمعنا،نحن البشر،في فصل أنفسنا عن الطبيعة كي نسوغ استعلاءنا وهيمنتنا عليها وفقدنا، بالتالي، القدرة على الاستجابة لها بلغة أخلاقية تواصلية.وفي هذه السيرورة من الانفصال،التي ميزت الثقافة الغربية الحديثة والمعاصرة، اكتسبنا بالتدريج فكرة زائفة عن شخصيتنا الخاصة وعن مكانتنا في العالم ودورنا فيه تتضمن أيضا إحساسا زائفا بالاستقلال عن السيرورات الطبيعية التي نشأنا في سياقها.وعليه فنحن اليوم بحاجة إلى تعاقد طبيعي جديد بين الإنسان والطبيعة، وبموجب هذا التعاقد ينبغي على الإنسان الالتزام أخلاقيا وقانونيا باحترام البيئة[42].وبفضل جهود الفلاسفة أصبحت"البيئة" أو"الطبيعة" أو"الأرض"، "موضوعا للأخلاق"، فنشأ ما يسمى "إطيقا البيئة"؛ وهي أخلاق موضوعها"سلوك البشر تجاه الطبيعة"،وغايتها المحافظة على البيئة ورعايتها.ومن هذا الحافز الأخلاقي الذي حرك الفلاسفة للمحافظة على البيئة،والذي أثرى الأخلاق بمبحث جديد،نشأ حافز إضافي آخر حرك بعض الفلاسفة وعلماء الجمال الذين وسعوا مجال الاهتمام بالطبيعة إلى خصائصها الجمالية، وأسسوا ما يسمى"استطيقا البيئة"[43]ونفس الحافز وجد في «المقاربات الفلسفية الأمريكية البيئية،التي أعادت طرح سؤال الأخلاق ومساءلة وضعية الإنسان

في الوجود من منظور أخلاقي»[44].كما يسعى الفلاسفة اليوم لاخضرار الفلسفة حتى تستطيع من خلال العقل الايكولوجي إنتاج وعي جديد بقيمة البيئة. إذ يدعو العقل الفلسفي الأخضر الإنسان المعاصر لأن يتحول إلى فلاح أو بستاني ،حتى لو كان مدرسا أو تاجرا أو صانعا ويشجعنا العقل الأخضر على التحول إلى بستانيين.كما يمكن للمتعلم المتشبع بالأفكار الإيكولوجية الخضراء الدفاع عن حقوق الطبيعة.

ولفهم التطور الفلسفي الذي حصل في مجال "العلوم البيئية" كان لزاما علينا الإطلاع على أهم تيارات الفلسفة البيئية خصوصا في العالم الأنجلوساكسوني عكس المدرسة الفرنسية التي لم تول اهتماما للموضوع إلا في السنوات الأخيرة، أما المجتمعات العربية فمفاهيمها حول البيئة لازالت في معظم جوانبها تتسم بالسطحية والاختزال،والحديث فيها عن "فلسفة بيئية" مسألة لازالت في اعتقادي بعيدة المنال..

ولقد حاول بايرد كاليكوت وضع"الفلسفة البيئية في سياقها التاريخي،ففي عام1973 أعلنت الأخلاق البيئية عن ظهورها الأول على مسرح الفلسفة،حيث نشر الفيلسوف الأسترالي بيتر سينغر مقالة "تحرير الحيوان"،كما نشر الفيلسوف النرويجي آرني نايس مقالة "الضحل والعميق، حركة الإيكولوجيا بعيدة المدى في المجلة الفلسفية الدولية،وفي المؤتمر العالمي 15 للفلسفة في فارنا في بلغاريا تساءل الفيلسوف الأسترالي ريتشارد سيلفان:هل ثمة حاجة إلى أخلاق جديدة،أخلاق بيئية؟ وبذلك فقد استحث سيلفان الفلاسفة المعاصرين كي يجعلوا شغلهم الشاغل تقديم مثل هذه الأخلاق[45]ثم بعد ذلك توالت المقالات في هذا الحقل فظهر عدد من الدراسات بحجم كتاب وانبثق إلى الوجود حقل جديد كليا في الفلسفة.

4-الفلسفة الايكولوجية(إيكوصوفيا) Ecophilosophy

إن الدراسة الفلسفية للبيئة والوسط البيئي للإنسان ظهرا في النصف الثاني من القرن العشرين،في وقت ظهور البوادر الأولى للأزمة البيئية العالمية التي ارتفعت حدتها اليوم بشكل خطير وجدي.فبين ما أفرزته الثقافة الإنسانية من تأكيد على خصوصية الإنسان كنوع وبين ما أفرزه هذا الإنسان وتلك الخصوصية من تدمير لموائله وموائل غيره، ظهرت اقتراحات نحو فلسفة جديدة مغايرة،تدعى بالفلسفة الايكولوجية.فما المقصود بها؟

فلسفة البيئة أو الفلسفة الايكولوجية،هي فرع من فروع الفلسفة يهدف إلى دراسة البيئة الطبيعية والمكان وعلاقته بالإنسان.وتشمل الفلسفة البيئية الأخلاقيات

البيئية وعلم الجمال البيئي والايكولوجيا النسوية .كما تهتم بدراسة الظواهر الطبيعية برؤية فلسفية[46] في تصاعد الأزمة البيئية للقرنين العشرين والحادي والعشرين.وتدعو الفلسفة الإيكولوجية عند هنريك سكوليموفسكي إلى إنسية إيكولوجية يكون عمادها القيم؛ قيم إجلال الحياة والانسجام والتناغم مع الطبيعة. فالفلسفة الإيكولوجية هي الفلسفة كما يجب أن تكون – فلسفة ذات معنى، لازمة، وتشاركية. إنها ليست فحوى كتب المكتبات التي تراكم عليها الغبار، بل بالأصح مقترب متفكر، معاصر لفهم العالم، ولفهمنا نحن.

كما أن أهم ما يميز خطاب الفلسفة البيئية،هو نزعتها النقدية الجذرية التي تنشغل بتقديم الأدوات المفهومية والمعرفية للكشف عن حقيقة البيئة وقضاياها ومشكلاتها.أي أن الخطاب الإيكولوجي يعمل على تهيئة الأطر النظرية والعملية التي تفيد بفهم الأزمة البيئية وانعكاساتها العامة على كل مكونات الوجود، والكفيلة بمراجعة فكرية للنظرة الحديثة إلى العالم،التي نشأت في الغرب الأوروبي وامتدت تأثيراتها إلى بقية أنحاء العالم، وشكلت في الوقت نفسه، نواة الحضارة الحديثة والمعاصرة، وأنماط الحياة والاجتماع والتمدن التي نشرتها في العالم.

فالفلسفة الإيكولوجية إذا ترى البشرية بوصفها واحدة مع الطبيعة، وكجزء لا يتجزأ من سيرورة التطور التي تمضي بالكون قدما من المادة الجامدة إلى الحياة، إلى الوعي، وفي المآل... إلى الإلهي.كما تروم الفلسفة الإيكولوجية اعتماد الآلية النقدية التجاوزية، بغية تأسيس مشروع إنساني جديد، يقوم أعطاب الحداثة ويعيد ترتيب وضع الإنسان في الطبيعة ودوره فيها.وهو مشروع يغيب المركزية البشرية أو أفضلية الإنسان وأسبقيته على كل الكائنات.وتجدر الإشارة إلى إن الفكر الإيكولوجي المعاصر مؤثث بالعديد من النظريات.وعلى الرغم من اختلافاتها، فإن أغلبها تدافع عن تفسير"ثقافي و"أخلاقي" للأسباب الكامنة وراء التدهور الشامل للمحيط البيئي [47].وللفلسفة الإيكولوجية خمس مبادئ أساسية [48]هي كالآتي:

1- العالم حرم.2-إجلال الحياة هو قيمتنا المرشدة.3-الوفر شرط مسبق للسعادة الداخلية.4-الروحانية والعقلانية لا يستبعد أي منهما الأخرى، بل تتكاملان.5- من أجل أن نشفي الكوكب يجب أن نشفي أنفسنا.

ويقوم هذا المذهب الإنساني الإيكولوجي على المصادرة المعكوسة لفكرة تسخير الطبيعة لأهداف الإنسان وحاجاته التي قبل بها ماركس؛ إذ يدعو إلى تسخير الإنسان للطبيعة. فعلينا أن نرى الإنسان كجزء من مخطط أوسع للأشياء، كجزء من الطبيعة ومن الكوسموس[49]. وعلينا أن نتجاوز ونلغي فكرة الإنسان البروتيوسي.[50]ولعل أبرز ما أثار الاهتمام في مجال الفلسفة البيئية الوليدة هو مفهوم الإيكولوجيا العميقة، فماذا يقصد بهذا المفهوم؟

5-الإيكولوجيا العميقة: المصطلح ودلالته

إن أبرز ما أثار الاهتمام في مجال الفلسفة البيئية الوليدة هو مفهوم الإيكولوجيا العميقةDeep Ecology ، وهي حركة بيئية أطلقها الفيلسوف النرويجي آرن نايس Arne Naess في مقالة كتبها عام 1973 في مجلة inquiry النرويجية بعنوان " الضحل والعميق: حركات الإيكولوجيا بعيدة المدى»، وأشار إلى الانقسام الصاعد في الفكر الإيكولوجي بين تيارين: الإيكولوجيا الضحلة السائدة آنذاك والتي وصفها بأنها تكافح التلوث واستنزاف الموارد الطبيعية (أي تتعامل مع المشكلات البيئية) مركزة اهتمامها على صحة ورفاهية سكان البلدان المتطورة؛ والإيكولوجيا العميقة التي يعد ما سبق مجرد جزء من اهتمامها، لأنها تطرح أسئلة أعمق حول طبيعة المشكلات البيئية. [51]وقد اهتمت الايكولوجيا العميقة بنظره أساسا بالتلوث واستنزاف الموارد، وتؤكد هذه الفلسفة على اعتبار البشر جزءا مكملا للنسق البيئي الذي يعتبر أعلى واكبر من أي من أجزائه ومن ضمنهم البشر ومن ثم تضفي قيمة اكبر على الكائنات الحية والأنساق والعمليات البيئية في الطبيعة

وتقترح الفلسفة الايكولوجية العمل على تغيير نمط التفكير الغربي المعاصر من أجل تجاوز المعضلة البيئية.ويرى الباحثان فرانسوا بليFrançois Blais ومارسيل فيليونMarcel Filio [52] أن مصادر الإيكولوجيا العميقة متعددة منها النظريات الفلسفية والميتافيزيقية ويدعون إلى ضرورة رفض الذهنية الغربية الفردانية والمتمركزة حول الذات التي أساءت للعقل الإنساني على مدى قرون ،ويرغب منظرو الإيكولوجيا العميقة،في نحث "أخلاقية جديدة" قابلة للتبني من طرف الكل،بغض النظر عن الانتماءات الدينية والإيديولوجية.

ويوضح آرني نيس الفرق بين الضحل والعميق فيما يخص مشكلات بيئية محددة، كالتلوث مثلاً. فالمقاربة الضحلة ترى أنه يمكن التغلب على المشكلة باستخدام التكنولوجيا والاختراعات العلمية، وكذلك بسن القوانين التي تحدد نسبة

الانبعاثات الملوثة المسموحة، كما يفضل تصدير الصناعات الملوثة إلى البلدان النامية. أما المقاربة العميقة فلا تركز على تأثيرات التلوث على صحة الإنسان، بل على الحياة بمختلف أشكالها، كما لا تهتم بإقليم محدد بل إنها تسعى إلى توسيعها على النطاق البيئي بأكمله.وبهذا تسعى الايكولوجيا العميقة إلى فهم المشكلة ومدى ارتباطها بالقيم والأفكار والأهداف التي توجه البشر في نشاطهم، ودور أسلوب الحياة ومجمل الشروط الحضارية في إحداث المشكلة[53].

ويدعو آرني نايس الخبراء إلى الجهر بدور الإيكولوجيا العميقة،اذ ان دفاعا جريئا عن الاهتمامات الإيكولوجية العميقة من قبل أولئك الذين يعملون ضمن النطاق البيئي الضحل المتوجّه نحو الموارد لهو الإستراتيجية الأفضل لاستعادة بعض القوة لهذه الحركة لدى الجمهور العام، وبالتالي الإسهام، ولو بتواضع، في تحويل التيار. [54] كما تدعو الإيكولوجيا العميقة إلى نبذ النظرة الحديثة إلى العالم المهيمنة حاليا مع ما يرافقها من مركزية بشرية تجعل الإنسان الحقيقة المحورية في الكون وتطرح مركزية إيكولوجية تقوم على الترابط والاعتماد المتبادل بين أعضاء النطاق البيئي، وتُحِلّ الانسجام والتناغم بين الإنسان والطبيعة محل أفكار وقيم السيطرة والغطرسة.

5-1-مبادئ الإيكولوجيا العميقة تبنى المركزية الإيكولوجية على مبدأين رئيسيين هما :المساواتية الحيوية

تعني المساواتية الحيوية أن «كل الأشياء في النطاق الحيوي لها الحق المتساوي في العيش والازدهار وبلوغ أشكالها الفردية الخاصة من التفتح»[55]. يعني أن كل أجزاء الغلاف الحيوي لها القيمة نفسها بحيث لا ينظر إليها كوحدات حيوية معزولة وفردية، بل كمساهمة في التنوع والنظام الذي يسود في الكون.ويراد بهذا المبدأ إقصاء البشر عن ذروة سلم التراتبية، بل ورفض لوجود هذه التراتبية استناداً إلى الاعتماد المتبادل بين أعضاء النطاق الحيوي، والذي من خلاله يسهم كل عضو في بقاء الأعضاء الآخرين على نحو تكافلي وتكاملي.من جهة أخرى، تستند المساواتية الحيوية إلى نظرة الإيكولوجيا العميقة إلى الحياة ككل، أي كسيرورة متكاملة [56] نشأت في سياق السيرورات الطبيعية الأخرى. فعلى الرغم من التنوع والتعقيد الذي نلاحظه لدى الكائنات الحية، إلا أن «الحياة واحدة أساسياً»[67]،ومن هنا تأتي القيمة الأصلية المتساوية لكافة أشكال الحياة التي تشمل الأنواع الحية والمنظومات البيئية التي تحتضن الحياة وترعاها.

فبالنسبة للناشط في الحقل الإيكولوجي، يكون الحق المتساوي في العيش والتفتح مسلمة قيمية واضحة حدسيا وجلية؛ وإن استئثار البشر بها يعد مركزية بشرية ذات آثار مؤذية على نوعية الحياة عند البشر أنفسهم. هذه النوعية تعتمد، نوعاً ما، على المتعة والمسرَّة العميقة التي تتنزَّل علينا من شراكتنا الوثقى مع أشكال الحياة الأخرى. إن محاولة تجاهُل اتِّكالنا هذا وتأسيس قاعدة السيد–العبد قد أسهم في اغتراب الإنسان عن ذاته.

وتربط الإيكولوجيا العميقة التدخلات البشرية في الطبيعة بتحقيق الحاجات الحيوية الضرورية وفق القوانين الإيكولوجية التي تحفظ تنوع الحياة. ويتم ذلك بأن يراعي النشاط البشري مبادئ استدامة المنظومات البيئية مع كل ما يتطلبه ذلك من تغييرات اجتماعية واقتصادية وإيديولوجية،وتقود إلى أسلوب حياة مستدام يختلف جذريا عن أسلوب الحياة المعاصر[58]كما يؤكد آرني نايس إن مناصرو حركة الإيكولوجيا العميقة يتصرفوا في النزاعات المعاصرة على أساس من اعتقاداتهم ومواقفهم. وهذا يمنحهم قدرة خاصة وترقبا سارا أو أملا بمستقبل أكثر اخضرارا.

أ- تحقيق الذات

لقد رفض آرني نيس تجميد هذا المصطلح في تعريف محدد، ويقول في هذا الصدد: «يخيب أمل الناس لأنني أستطيع تأليف كتاب حول حدس لم يشرح أو يُعرّف في أي موضع»[59]، لكن الهدف الرئيسي من هذا المفهوم يتمثل في إعادة ربط الإنسان بالطبيعة، من خلال اقتراح مفهوم الذات الإيكولوجية التي تمضي إلى أبعد من الذات الغربية الحديثة[60] ويؤكد الباحثان فرانسوا بلي ومارسيل فيليون أن مفهوم "تحقيق الذات"يحيل إلى الوعي بالهوية الإنسانية في بعدها الكوني الشامل بما يعني تجاوز مفهوم الأنا الضيق[61].ويؤكد آرني نيس أن تحقيق الذات الإيكولوجية سيرورة مستمرة من النضج والنمو الروحي تتطلب التوحد[62] مع الآخر، البشري وغير البشري. فعندما نكتشف أن الآخر مكون من مكونات ذاتنا فهذا يعني أننا لا نستطيع الانفصال عنه أو تدميره إذا أردنا تحقيق ذواتنا.

6- الحاجة إلى أخلاق جديدة : أخلاق الأرض

لقد سعى العديد من الفلاسفة والمفكرين إلى إيجاد أرضية مشتركة بين النماذج المعرفية البيئية والمواقف الأخلاقية المتعلقة بالطبيعة القائمة على تبني الإنسان لموقف أخلاقي أساسي هو موقف احترام الطبيعة،ومن هنا ظهرت الحاجة إلى أخلاق جديدة تسمى بأخلاق الأرض.

إن "أخلاق الأرض"، كما عرفها ليوبولد، ترفض الأطروحات "الفردانية" و"المختزلة" التي تطبع توجها كالفلسفة "المتمركزة حول الحياة التي تبوئ الكائنات الحية مقاصد أخلاقية جوانية باعتبارها كائنات معزولة. فأخلاق الأرض كما يقول ليوبولد ببساطة هي توسيع "دائرة الكائن البيئي" ليشمل التراب والماء والنبات والحيوان: أي باختصار الأرض[63]. وتوصل ليوبولد إلى "مسلمته" التي أصبحت "شعار" الفكر الإيكولوجي المعاصر والتي تقول: "أن الشيء السليم هو الذي ينحو منحى الحفاظ على الوحدة والاستقرار و"الجمال" الذي يسود المجتمع الحي. وسيكون عين الخطأ إن نحى منحى مغايرا."

وعليه يترتب علينا التزامات خلقية بديهية تخص النباتات والحيوانات البرية بحد ذاتها، باعتبارها في مجتمع الأرض الحيوي.فنحن ملزمون أخلاقيا بحماية وتعزيز خيرها الخاص ولأجل ذاتها وحسب.فواجباتنا في احترام تكامل المنظومات البيئية الطبيعية والحفاظ على الأنواع الحية المهددة،وتجنب التلوث البيئي، تنبع من حقيقة أن هذه الواجبات هي وسائل نستطيع من خلالها المساعدة في تمكين مجموعات الأنواع الحية البرية من اكتساب وجود معافى والحفاظ عليها في حالة طبيعية.[64] ومثل هذه الالتزامات هي حق لها بمعزل عن اعترافنا بقيمتها الأصلية.وإذا وافقنا على نظرية أخلاق البيئة المتمركزة حيويا يجب علينا إعادة تنظيم جذرية لأخلاقيات عالمنا وسنبدأ النظر في ضوء جديد إلى كامل النطاق الحيوي على الأرض، كما سنرى واجباتنا نحو "عالم" الطبيعة كمطالب بديهيه يجب أن توازن مع واجباتنا نحو عالم الحضارة البشرية. ولن نستطيع هكذا ببساطة تبني وجهة النظر البشرية وتقدير تأثيرات أفعالنا انطلاقا من منظور خيرنا الخاص فقط.

ويشرح ج.بايرد كاليكوت نشوء الأخلاق البيئية، مركزا على النزاع النظري بين الأخلاق البيئية وبين تحرير حقوق الحيوان في قوله "إن الأخلاق التي يتبناها معظم البيئيين تتطلب الحفاظ على المنظومات البيئية،وبالتحديد الأنواع النباتية، مهما كان الثمن، حتى لو أدى ذلك إلى قتل الحيوانات الثديية العاشبة المألوفة، بينما الأخلاق التي يتبناها الناشطون في تيار تحرير حقوق الحيوان تفضل الحيوانات الثديية، حتى لو أدى ذلك إلى المزيد من التدهور البيئي وتآكُل التنوع الحيوي [65] .ويشير إلى أنه من الناحية النظرية،ان تيار تحرير حقوق الحيوان حرث أرضا جديدة في الفلسفة الخلقية

عندما خطا إلى أبعد من حدود الجنس البشري.وعليه فإن المنظومة الاعتقادية الكامنة في موقف احترام الطبيعة "وجهة النظر المتمركزة حيويا نحو الطبيعة"

يجب عدم التفكير فيها على أنها خلاصة للعلوم البيولوجية المهتمة بالمنظومات البيئية لكوكبنا بل ربما توصف بأفضل ما يمكن، كنظرة فلسفية إلى العالم، وذلك لتميّزها عن نظرية علمية أو منظومة تفسيرية، مع أن أحد أركانها الرئيسية هو الدرس العظيم الذي تعلمناه من علم الإيكولوجي وفحواه أن الاعتماد المتبادل بين جميع الأشياء الحيّة هو نظام موحد عضويا يشكل توازنه واستقراره الشروط الضرورية لتحقيق خير مجتمعاته الحيوية المكونة له. ويمكن القول أن أخلاقيات احترام الطبيعة تتشكل من ثلاثة عناصر أساسية وهي: منظومة اعتقاديه.

- موقف أخلاقي أساسي.
- مجموعة من قواعد الواجب ومعايير الشخصية.

وترتبط هذه العناصر بعضها ببعض بحيث تقدم المنظومة الاعتقادية وجهة نظر معينة حول الطبيعة،وهذه تدعم وتضفي المعقولية على تبني الفاعل المستقل لموقف أخلاقي أساسي هو موقف احترام الطبيعة.وهي تدعم وتضفي المعقولية على الموقف بمعنى أنه عندما يعي الفاعل المستقل علاقاته الأخلاقية مع العالم الطبيعي بواسطة وجهة النظر هذه، فإنه يعترف بأن موقف الاحترام هو الموقف الملائم أو المناسب الوحيد الذي يجب اتخاذه نحو كل أشكال الحياة البرية في النطاق الحيوي للأرض.

هذا وينتقد ريتشارد سيلفان البنية الأخلاقية القائمة في مجملها، ويظهر تعارض هذه البنية مع إمكانية صوغ أخلاق جديدة بيئية من داخلها. فالنظرة الغربية المهيمنة في نظره لا تنسجم مع أخلاق بيئية؛ اذ ان الطبيعة وفقا لها تعد ملكية حصرية للإنسان [66] إذن الأخلاق المعدّلة عن الأخلاق السائدة غير كافية، بل المطلوب هو أخلاق جديدة.

خـــاتـمة

يتضح مما سبق أن الفلسفة البيئية، فلسفة ثورية بامتياز، تحكمها نزعة طبيعية تحريرية للقيم الأخلاقية،فالمقاربة الإيكولوجية الأخلاقية بمختلف ألوانها تسعى إلى تأسيس خطاب ايكولوجي عميق،يتجاوز ويراجع الطرق التقليدية للفلسفة الغربية ونموذجها الإرشادي المعرفي الحداثي بغية تطوير بدائل فلسفة قيمية جديدة كفيلة بصياغة مثل أخلاقية جديدة،تعتمد على منظور إيكولوجي شامل كفيل بتغيير القيم الاجتماعية، وبلورة مثل ثقافية بديلة.

ومن اجل تحقيق هذه الفلسفة القيمية نحتاج إلى قرارات سياسية جريئة تمنع التدخل اللاعقلاني في المجال الإيكولوجي،كما يجب تبني نموذج التنمية المستدامة لمراعاة حقوق الأجيال الحالية والقادمة دون إفراط أو تفريط في الحق الإنساني أو حق الطبيعة.ويجب أيضا الدعوة إلى تربية جيل إيكولوجي يصقل عقله بهذه المفاهيم الأخلاقية نحو البيئة حتى تترسخ في لاوعي المتعلم وتصبح جزءا من هويته الشخصية وهكذا يكون الدفاع عن الطبيعة بالنسبة إليه بمثابة الدفاع عن الهوية .

الهوامش

1- محسن محمد امين قادر، التربية والوعي البيئي وأثر الضريبة في الحد من التلوث البيئي، رسالة ماجستير، كلية الإدارة والاقتصاد الأكاديمية العربية في الدنمارك ، 2009، ص 16.

2- ابن منظور، لسان العرب، المجلد الأول، د ت، دار صادر للطباعة و النشر بيروت، ط1997،1، ص269.268.

3- جميل صليبا ، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، مكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، 1982 ، ص 220 ، 221

4- اندريه لالاند، الموسوعة الفلسفية، ت خليل احمد خليل، منشورات عويدات، بيروت باريس، Oxford Advanced Learner's ط2، 2001 ، ص806.

5- Dictionary, Oxford university press, ed :7,p485.

6- Dictionnaire Hachette, Paris ,ed 2009,p511.

7- Ibid, p511

8- محسن محمد امين قادر، التربية والوعي البيئي وأثر الضريبة في الحد من التلوث البيئي، ص16

9- نفس المرجع، ص18.

10- صباريني محمد سعيد راشد الحمد، البيئة و مشكلاتها، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد22، اكتوبر1979، ص 24

11- علم البيئة، موقع ويكيبيديا، الموسوعة الحرة. http://ar.wikipedia.org/wiki

12- Kumar, H.D, Modern Concepts of Ecology, Vikas Publisher House, New Delhi, 2nd ed., 1981, p. 1.

13- سليمان محمد محمود، الجغرافيا و البيئة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب وزارة الثقافة، دمشق، 2009، ص 8.

14- نفس المرجع، نفس الصفحة

15- ماير، أرنست، هذا هو علم البيولوجيا، ت: عفيفي محمود عفيفي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 22، الكويت، 2002. انظر ايضا: الحفار محمد سعيد، الموسوعة البيئية العربية، قطر، 1998، المجلد الأول، ص 100.

16 - Kumar, Modern Concepts of Ecology, op. cit., p. 2.

17- Ibid., p. 3.

18- محمد الخولي، قراءة في كتاب الفلسفة الخضراء لمؤلفه روجر سكرتون، الفلسفة الخضراء\دراسات خضراء green-studies.com/2012/01/27 تاريخ الدخول2018/02/13.

19- كرم عباس، المحاضرتان الخامسة و السادسة من علم الايكولوجيا إلى فلسفة البيئة، ص1، www.geo-house.net/.../geo-house.net-image-3978724

20-Catherine Larrère. Entrevue. Réalisé par Sandrine Berges. Dans Ethique et Economique (2). 2004.

21- Novikoff A.B.(1945). "The concept of intégrative levels and biology" (PDF). Science.101 (2618)pp 209–211

22- المعجم الفلسفي المختصر ، ص 82.

23 - Kumar, Modern Concepts of Ecology, op. cit, pp. 3-4.

24 - الحمد، رشيد، وصباريني، محمد سعيد، البيئة ومشكلاتها، سلسلة عالم المعرفة، الفصل "الإنسان مشكلة البيئة" العدد 22، ط. 2 (منقحة)، الكويت، 1984، ص 78-76.

25- محمد محمود سليمان، ناظم عيس، البيئة والتلوث، جامعة دمشق، 1999-2000، ص12.

26- جمال مفرج،الفلسفة المعاصرة من المكاسب إلى الإخفاقات،الدار العربية للعلوم، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1430ه\2009م، ص35 .

27 - L'éthique, le politique, l'écologie. Entretien avec Paul Ricœur (propos recueillis par Edith de Jean Paul Deléagel).Ecologie politique. Sciences, Culture, Société. 1993. N°7, été.

28-Jean-Marie Schaeffer, La fin de l'exception humaine, Gallimard.2007.p 123.

-29 L'éthique, le politique, , l'écologie. op. cit.

30- وجدى خيري نسيم ، الفلسفة وقضايا البيئة اخلاق المسؤولية ، تقديم انور مغيث، المجلس الاعلى للثقافة ، القاهرة ، ط2009،1، ص73 .

31- مارتن هيدجر ، التقنية – الحقيقة –الوجود، ت محمد سبيلا، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، 1995، ص65.

32-مارتن هيدجر،الفلسفة في مواجهة العلم و التقنية ،ترجمة فاطمة الجيوشي، وزارة الثقافة، دمشق ، 1998، ص 97.

33-Zakaria Rhani, l'Humanisme à l'ère technologique: vers une éthique Heideggérienne de la parole et de la technique. Altérités; Vol: 5, 2008. P. 84-87.

34- Jürgen Habermas (1983), Moral Consciousness and Communicative Action. Translated by Christian Lenhardt & other (Cambridge, The MIT Press 1992) Pp 118-116

35- إكرام فهمي حسين،أثر التقدم العلمي على الإنسان والبيئة في العصر الحديث، مجلة كلية الآداب بجامعة حلوان، ع26، يوليو 2009، ص452.

36- محمد الفضيلي ،الفكر الأخضر... أو إعادة الاعتراف بالطبيعة ، صحيفة قاب قوسين 2018 – 2010، تم النشر في 11/22/2014، على الموقع الالكتروني www.qabaqaosayn.com

37- إمانويل كانط، أسس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة فيكتور دلبوس، دولاغراف، 1969، ص 149-148

38- Hans Jonas, le principe de la responsabilité, une éthique pour le société démocratique, le Cerf, 1995.pp 34-35.

39- هنري برغسون، منبعا الأخلاق والدين، ترجمة: سامي الدروبي، عبد الله عبد المنعم، الهيئة المصرية العامة لتأليف والنشر، الطبعة الأولى 1971، ص 19

40- جون جاك روسو ،اميل ،ترجمة عادل زعيتر، ط1 ، دار المعارف، القاهرة، 1936 ، ص24

41- نفس المرجع ،نفس الصفحة .

42- جمال مفرج،الفلسفة المعاصرة من المكاسب إلى الإخفاقات،الدار العربية للعلوم، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1430\2009م، ص36 .

43- نفس المرجع ،نفس الصفحة .

44- حوسى أزارو(الرباط)، الفلسفة البيئية: نحو أخلاق طبيعية بديلة، الشرق الأوسط.html، الخميس - 2 محرم 1437 هـ - 15 أكتوبر 2015 م العدد [13470].

45- بايرد كاليكوت، مقدمة الفلسفة البيئية ج.1-عالم المعرفة عدد 332، 2006، ص 27.

46-Desrosiers Yvon, « Une controverse récente sur les rapports entre philosophie de la nature et sciences de la nature », Revue Philosophique de Louvain. Troisième série, Tome 63, no 79, 1965, p. 419-420

47-François Blais et Marcel Filion. De l'éthique environnementale à l'écologie politique. Apories et limites de l'éthique environnementale.. Philosophiques Vol: 28, N°2, 2001. P 255.

48- هنريك سكوليموفسكي، ما هي الفلسفة الإيكولوجية؟ بعض المبادئ المؤسِّسة، ترجمة معين روميه، موقع معابر www.maaber.com.

49-هنريك سكوليموفسكي،فلسفة البيئة، بترجمة ديمتري أفييرينوس وتقديم م. فايز فوق العادة، سلسلة أبجدية المعرفة 5، دار الأبجدية، دمشق 1992.

50-الذي يتخذ كل الأشكال بدون أن يكون له شكل محدد

51-Devall, Bill, and Sessions, George, Deep Ecology, Gibbs Smith Publisher, Salt Lake City, 1985, p. 63.

52- François Blais et Marcel Filion.De l'éthique environnementale à l'écologie politique. Apories et limites de l'éthique environnementale.Philosophiques Vol:28,N°2, 2001.P 255.

53-Naess, Arne,«The Deep Ecological Movement: Some Philosophical Aspects», in Zimmerman et al, op. cit., p. 192.

54- مايكل زيمرمان، الفلسفة البيئية: من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية، ترجمة معين شفيق رومية، سلسلة "عالم المعرفة" 332-333، ط 3، 2006. ص 568

55- Devall, Deep Ecology, op. cit., p70

56-Naess, Arne, Ecology, Community and Lifestyle, Translated by David Rothenberg, Cambridge University Press, Cambridge, 1989, p 165.

57- Ibid., p. 166.

58- Devall, Deep Ecology, op. cit., p. 70-73.

59- Naess, Ecology, op. cit., p. 8.

60- Devall, Deep Ecology, op. cit., pp. 66-67.

61- François Blais et Marcel Filion. De l'éthique environnementale à l'écologie politique. Apories et limites de l'éthique environnementale. P 255.

62-Naess, Ecology, op. cit., p. 10-11.

63--Aldo Leopold,Almanach d'un comté des sables,J. M.G.Le Clézio (tr.),Paris, Flammarion, 2000 [1949],p224.

64- مايكل زيمرمان واخرون، "الفلسفة البيئية" ابتداء من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجي، ت معين شفيق رومية، الفصل الخامس:أخلاقيات احترام الطبيعة للكاتب بول تايلور، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة "عالم المعرفة"، العدد (332)، 2006.، ص 25

65-مايكل زيمرمان، الفلسفة البيئية: من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية، ترجمة معين شفيق رومية، سلسلة "عالم المعرفة" 332-333، طب 3، 2006. ص 27

66- نفس المرجع ، ص 43.